الانسانية اليوم اقل جمالا بعد ثورة التكنولوجيا، تلك الثورة التي عصفت بالعالم آذت البشرية ولم تحل مشاكله وابعدت الانسان عن نفسه وعن روحه.. ارى الدمار والهدم اكثر من التقارب والحب

ابراهيم النوباني فنان تشكيلي فلسطيني يعيش في حيفا، وعندما أقول حيفا فأقول الخالق في اجمل واعنف لحظات حبه للبشر وغفرانه للمذنبين. في هذا الفضاء المتوهج بالحواس ورغبات المعرفة واقتحام المخبوء في كثبان التخلف والجهل والخوف، تولد لوحات ابراهيم، ويولد معها ابراهيم، مع كل لوحة تبزغ من روح ابراهيم – تولد له روح جديدة. يعيش ابراهيم بعشرات الارواح خالدا بلوحاته، شاهدا على خراب المشاعر البشرية وغزو القيم الاستهلاكية وانتشار العنصرية وضياع الهوية. هل يعرف ابراهيم انه يرسم لوحاته في احضان مدينة هي نفسها لوحة مرسومة بيد الهية؟ اعتقد انه يعرف والدليل على ذلك هو انه يشعر ويرى الالوان تمشي وتتنفس وترقص ايضا في حيفا.

بأي الالوان، وبأي الخطوط تحب ان ترسم المسافة بين رام الله وحيفا، هذه المسافة المغتاظة منك والتي تكورها انت بين يديك ككرة جوارب يلهو بها اطفال المخيمات الفلسطينيون؟

اذا كنت تسألني عن الالوان فانا ضائع غارق بين الابيض والاسود والاخضر والاحمر. ما زلت ابحث عن الوان الحياة – الوان الحب والنشوة والتعالي والاستقرار في وطن، لا يرجو مني غير السفر بين مدنه وواقع مأساته، اني احب قريتي التي ولدت فيها، احب المكر واحب حيفا التي اسكن بها، حيفا الجالسة هناك بألوهية تحت سفح الله، لكني ممزق فالمدينة الاخرى تقطع احشائي بسكين بهائها ونسائها. المدينة الاخرى، المبنية على الاحزان والحطام والموت والدم والشهوة، يصفعني دائما نبض روحها المتمرد غير المستسلم تأخذني ابتسامتها التي تقول لي: انتهى العمر وبدأت انا، لا اعرف ولا أومن بمعنى الحاجز والحواجز بين نصفي كبدي وجناحي روحي، اني لا اعترف بالجدار بين رام الله وحيفا، لا افهمه ابدا لانني ببساطة لا افهم الحدود بين العصفورة والحقل، بين الله والانسان.

هل تستطيع ان تقبض على لحظة احسست بها باللون كلغة تواصل مع العالم وكهوة واسعة تجتاح حواسك؟

اللون لغة الحياة، بالنسبة لي، ولكنها تصطدم فوق مساحات لوحاتي كأنها بحر هائج او ليل رمادي، يريد ان يحكي، ويقع بفخ الفرح والحزن واللهو والعبث والراحة والاغتراب الذي بداخلي، عن شوارع حيفا الحزينة وما تبقى منها. الواني هي انتصار انسانيتي على همجية الغزاة، ووجع وطني.

الفن التشكيلي ادى فلسطينيي الداخل هو اقوى حلقات المشروع الثقافي الفلسطيني هل تستطيع ان تفسر سبب هذا النشاط التشكيلي؟

شر البلية ما يضحك، الفن كان دائما ينمو ويتطور بغض النظر عن مواضيعه في الصالونات البرجوازية، واذا كانت اسرائيل تمنحنا نوعا من الوقت والادوات لنخرج لحظة من انفسنا ونفكر بما لا يجب ان نفكر به فالكمية لا تثبت الجودة كما قالوا، ولكن انا ارسم لاني اكافح، واكافح لاني ارسم، ارسم من اجل الكفاح واكافح من اجل الرسم – الفلسطيني في الداخل انسان يشعر ويعبر ويغضب ويفرح، ولكنني أومن بان الشعب بلا مؤسسات لا يبدع – فلا ارى فنا فلسطينيا بدون هوية ووجود مؤسساتي ودولة وهذا يشمل كل ما يسمى الثقافة الفلسطينية وكل الشعب الفلسطيني بشرا ومؤسسات.

انت رجل تخطى الاربعين ما زال يمتشق اللون حصانا جامحا يلوح به في وجه الزمن: سؤالي هو: هل ثمة علاقة بين التشكيل والزمن؟

ان كنت تسألني عن الاربعين، فانا غارق في الاربعين وما تعنيه هذه المرحلة من معان وهواجس ورؤى. لعلي اتذكر الآن الفترة الوردية في حياتي وفي فني. ما زلت ادفع ثمن طفولتي وبراءتي رغم وصولي جيل الاربعين، لكن الالوان الوردية ستبقى شوكا وغصات، في قلب من صنع مني قاتلا وارهابيا ولا انسانيا. الواني الوردية ستبقى كانتصار ابتسامات اطفال شعبي، نساء مدني، رجال مخيماتي، ضياع الهوية وضياع الثقافة هما من معالم اربعينياتي. لا بد من هوية جديدة، لا بد من ثورة اخيرة.

انت تعيش في حيفا الساحرة التي ترقص بفرح غامض بلا كلل على كتف وخاصرة بحر لا يكف عن الوسامة. اياك ان تقول لي ان حيفا لم تتحرش حتى الآن في عالمك الفني؟ لم تغز مثلا لوحاتك ولم تخربش الوانك؟ لا تقل لي ذلك، احذرك.

كأنك ترى يا زياد في حيفا انثى لم تولد بعد، اني اقطن في حيفا، قرب الميناء وساحة الحناطير، اعيش على بقايا ما تبقى من عمارة كانت جميلة. لكني اليوم لا ارى أي شيئا هناك، ارى نفسي خيالا او ظلا سابحا في عالم لا يعرف ما اريد منه ولا يعرف ما يريد مني، حيفا بكرملها في عيوني حزينة الى درجة الشعور بالنهاية واللافائدة، فهي مغتصبة واغتصابها يوجع مؤخرتي، اشعر بالخصاء كأني حيفا، ارى الربوة ولا استطيع الصعود اليها. ارى الحبيبة ولا استطيع ان اعانقها او اشتم عبير عينيها، اني اجد القضية ما بين رام الله وحيفا، كان يجب ان اثور

على الالوان الوردية والفيروزية.

انت من الفنانين الذين يعرضون اعمالهم للبيع بشكل مغر هل تشعر ان قابلية لوحاتك للبيع يؤثر على خياراتك الفنية وشروط روحك؟

لا اعتقد ذلك، انا ارسم وابدع من داخلي وانا حر فقط لنفسي، اعني اني افجر حريتي من داخلي دون رقابة واصنع لنفسي حدودا على اللوحة دون ان افكر بالمشتري، ارسم من اجل حاجة وجودية، تسويق الفن هو حاجة طفيلية طارئة لا تصنع فنا ولا تبني رؤيا، بالاضافة الى ذلك ارى انه كما يعطى المواطن العربي في حيفا حقه بالقطارة فانا مثله، سألتني عن الاربعين وارجو ان تسألني عما بين يدي، لا وجود معي سوى حرية لوني.

برأيك هل يمكن ان يقف الفن مع الشر؟ كيف تفسر مأساة – ملهاة عين حوض، حيث يعيش فن الاسرائيليين على انقاض فرح وسعادات وبيوت جداتنا وامهاتنا وآبائنا كيف نفسر هذه الظاهرة الخارجة؟

لا استطيع ولن ، لقد زرت عين حوض مرة واحدة، هربت من هناك بعد ان قيل لي بانني ساستقبل ببيت يحافظ على العمارة العربية بعد ان سكنها الصهاينة. لقد هربت شر هروب، انا لست ممن يتركون الميدان ولا اعشق الهروب لكن الانسانية لها وجوه عدة، هذا الوجه القبيح المستولي على عين حوض هو ما تغلب على لوحاتي واعمالي في الاعمال الاخيرة، هاجس محو عين حوض وقتل اصالتها، هذا الهاجس سكن روحي قبل لوحاتي. لكن قصة عين حوض هي قصة شعب بكامله، من خلال تواصلي مع شعبي في عمان او رام الله فاني اسمع مأساة يمكن ان تكون مأساتي وهي اكبر.

كيف تنظر الى الفن التشكيلي الاسرائيلي مقارنة مع الفن الفلسطيني؟

الفن الفلسطيني كما الحلم الفلسطيني ما زال بالقماط، ان الهاجس الوطني عند الفنان الفلسطيني هو ما يجمع على الاكثر بين هذا الفن ويسيطر عليه سيطرة تشبه الهوس، الفنان الفلسطيني بتقنياته وتخصصاته يصنع الحلم ويرسم المأساة ويعيش بأمل. كم هو مؤلم ان اخاطب فصام حياتي، كوني فنانا ترعرع في قلب المؤسسة الصهيونية والشعور الكابوسي بالانتماء الذي لا اجده هناك. اني أومن بفن مستقل ومتحرر كي تتاح له الفرصة للتعبير الاكبر عما يمكن ان يرى الفنان ويعبر عنه. من دون انتماءات ايديولوجية وهذا ما ادرى بالفن الصهيوني، فهو اسير فكرة الاضطهاد وعقدة الخوف من الآخر وانفصام الشعور، هو فن اشكالي ومأساوي يسبب لرموزه الدوار والامراض.

هل تخاف المؤسسة في اسرائيل من الفن التشكيلي الفلسطيني، بصيغة اخرى هل تخاف من ابراهيم النوباني؟

تخاف مني، فانا برأيهم لست من يصنع الفن، بل انا من يصنع القنابل، فالفن هو انعكاس للواقع، واذا كان فني صاخبا ومتشابكا ولا منتهيا فان القضية لن تنتهي بعد. اسرائيل كأي دولة اخرى تمارس الاحتلال ضد الآخرين من الطبيعي ان تخاف ممن يرفض منطقها من الشعب المحتل فكيف لا تخاف ممن يصنعون من هذا الفن جدائل

من قصائد ومسرحيات ولوحات وافلام، وروايات، نعم يا صديقي ان الفن يخيف بالفعل.

النقد التشكيلي شبه غائب في فلسطين كما هي اشياء كثيرة غائبة. هل يستطيع الفنان ان يواصل مسيرته الفنية دون نقد؟ وما مخاطر هذا الغياب على الفن التشكيلي الفلسطيني؟

كما ذكرت لك ان الفن الفلسطيني ما زال في القماط، اعتقادي ان الرسم بدون نقد يبدأ من المشاهد اولا لا يمكن ان يكتمل، عندما يرسم الرسامون فهم يفكرون بالمشاهد دائما، كما عاصرت انا بداية الفن التشكيلي في الداخل، كنت انا الوحيد في سنوات السبعينيات ادرس الفن كظاهرة غريبة. اليوم ارى ان مئات من الطلاب الذين يدرسون الفن التشكيلي والنقد، كلي امل ان يتأسس نقد فني تشكيلي مواكب لمسيرة الفن وتحولاته في بلادنا، لانه لا تطور ولا عمق ولا ازدهار للفن دون نقد.

التواصل بين الفن التشكيلي في 48 و 67 جيد بالمقارنة مع حلقات الثقافة الاخرى كالمسرح والسينما لماذا برأيك؟

الفكر الصهيوني، لا يفرق كثيرا بين 67 و 48 من خلال زياراتي لرام الله في السنوات الاخيرة لاحظت وأومن ان هناك تواصلا ثقافيا حضاريا بين ابناء الشعب الواحد. اني اشهد على حركات تواصل جيدة ولكنها لا تكفي واعتقد ان الاسباب الاحتلالية هي السبب – فانا اعرف من يرغبون في الحضور ولكنهم يخشون من تبعات الزيارة على صعيد الاحتلال والحواجز.

كفنان تشكيلي كيف تنظر بالعين الفنية لا السياسية ولا القومية ولا الفكرية الى ما يلي: التسونامي، انهيار البرجين، موت مهيب البرغوثي؟

اعتقد ان انتصار أي ثورة هو انتصار انسانيتي على الاحتلال، اما بالنسبة لانسانيتي فانا اراها اليوم بدرجة بشاعة وتفكك، كان هذا التاريخ دائما هكذا، الانسانية اليوم اقل جمالا بعد ثورة التكنولوجيا، تلك الثورة التكنولوجية التي عصفت بالعالم آذت البشرية ولم تحل مشاكله وابعدت الانسان عن نفسه وعن روحه، اني ارى الدمار والهدم اكثر من وجود التقارب والحب انا لا احتمل موت مهيب برغوثي، وان حدث ومات حراً وسعيدا فقد صنع بموته الحياة، مهيب هو انا وانا هو كما حيفا هي رام الله وكما رام الله هي حيفا.
تسونامي: فنيا، انها مأساة، لا تمت للفن بصلة فهو دمار وموت ولا فن مع الموت. والدمار والتشرد. انهيار البرجين فنيا هو ادقّ فيلم امريكي باخراج اسلامي امريكي.

انت بعيد عن فن البروترية ولا تعتمد الانطباعية ولا تتحمس للكولاج، حدثنا قليلا عن مدرستك ورؤاك الفنية، البداية والمحطات؟

خلال حياتي في فترات الدراسة في كلية الفنون – القدس، تأثرت جدا في المدرسة البنائية ولوحات موندیان التي بحثت عن القوانين وطبيعة الاشياء في البناء المستقل للوحة، لكنني بعد الفترة الوردية، جاء الانقلاب وبدأت الثورة

على كل ما درسته وايضا كثورة على الواقع وعدم رضاي عنه خاصة ما يجري لشعبي – بدأت احطم واكسر الحدود والبناءات، تحولت لوحاتي الى اعمال فوضى وعبث مدروسين وفق رؤيا الجنون والنقمة على الواقع الفظ المعادي. لكني اليوم ارى تغييرا عكسيا باعمالي. بالتأكيد لن انتج نفس الاعمال السابقة لكني ابحث عن البناء من جديد وفق تنويعات جديدة.

لماذا لا يوجد لدينا حتى الآن سيزان العربي او دالي العربي. الفن التشكيلي العربي لم يصل الى مصاف الابداع العالمي الخالد؟

يوجد فنانون فلسطينيون وعرب تعدوا العالمية ووصلوا الى مصاف فنانين عالميين كبار، هناك خلل كبير احسه يتمثل في ان المجتمع الفلسطيني لا يبني الفنان ولا يقدمه للعالم بل ينتظر الشرعية الفنية العالمية لتقديم الفنان الفلسطيني. فمثلا لو اقيم في لندن معرض لي هناك على مستوى عالمي وعدت الى بلادي فسيتم الاحتفاء بي والاعتراف بي كفنان، اما قبل ذلك أي قبل العرض فانا مهمش واسم بلا معنى. في العام الماضي تم افتتاح معرض لي في الفن المعاصر في متحف تل ابيب للفن المعاصر، الذي شمل عشرين عاما من الانتاج، ولم يكتب عنه في أي صحيفة عربية رغم اني دعوت كل الصحف للحضور.

حاوره: زياد خداش
السبت 9/7/2005

مشاركة على فيسبوك